المبحث الأول

الاستشراق: الخلفية والهدف

- مدخل
- مولد الاستشراق
- أهداف الاستشراق
- الوطن العربي هدفاً للتبشير والاستشراق
- رموز استشراقية
- مراجع المبحث الأول

مدخـل:

الحضارة هي أنفس وأنبل وأخلد ما للأمة من تراث في إجماع علومها وآدابها وفنونها، ولئن كان من صنع الطبقة الممتازة فيها فهو للإنسانية جمعاء لا فرق بين عرق ولغة أو حاجز من زمان ومكان ما دامت الإنسانية تشارك فيه على أقدارها متأثرة ومبدعة ومؤثرة. تتوارث أفضله وتبنى عليه في سبيل تطورها وتفاهمها وتكاملها. وقد كان للعرب والمستعربة والذين دخلوا في الإسلام تراث ومشاركة وإبداع منذ أقدم العصور ولكنه لم يصبح عميقاً شاملاً متبلوراً إلاّ بالإسلام. فالإسلام مد فتوحه من مكة إلى الشرق والغرب مستقراً في بعض بلدانها، ماراً أو مجاوراً بعضها الآخر، وقد دخل فيه الكثيرون، واتسع سماحه - ولا سيما في عهد حكامه العرب - لغيرهم من أصحاب العقائد. وكان لهؤلاء علوم وآداب وفنون، فأدخلوها فيه، وجمعوا بين علومه وبينها. واتخذوا العربية - لغة الكتاب فحلت محل الفارسية والسريانية والقبطية واليونانية واللاتينية من فارس إلى جبال البرانس، وتجاوزتها إلى غيرها من لغات أوروبا فكونت في العصر الوسيط حلقة من تراث اليونانية القديمة واللاتينية الحديثة الممزوجة بالعلوم التي تحتويها الحضارة العربية الإسلامية الصاعدة أرست عليها أوروبا نهضتها وظهر على طرفي النهضتين المستشرقون. فتناولوا تراثنا بالكشف والتقديم والفهرسة، والدراسة والتحقيق والترجمة والتصنيف" وإذا كان الفكر الإسلامي بلا ريب. وبإجماع منصفي البحث - من المصادر الأساسية للثقافة الغربية المعاصرة. وللفكر الإنساني العالمي الحديث[1] فإن هذا الدور يتمثل في أن هذا الفكر هو الذي حرر الفكر اللاتيني وأطلقه من عقاله. ومن رواسب قيود محاكم التفتيش والأوثان الإغريقية، **وذلك بأن:**

1 - شرح ذلك التراث. وعلق عليه، وخلصه من قيوده.

(1) الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، محمد عبد الرحمن مرحبا، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1978م، ص11.

2 - زاده قوة وأضاف إليه، بفضل ثمرات حضارته.

بحيث نستطيع القول: إن الحضارة الحديثة لم تنهض - كما يرى بعض الحاقدين على العروبة والإسلام، على أساس التأمل اليوناني المحض. وإنما كان دور العرب العلمي هو الأساس الذي بنيت عليه هذه الحضارة.

إن الحضارة الأوروبية مدينة بوجودها للحضارة العربية الإسلامية يؤكد هنا "بريفو" Briffau it في كتابه "تكوين الإنسانية Making of Humanity".

وكذلك "جورج سراتون" G.Saraton في كتابه "المدخل إلى تاريخ العلم Instructtion to the Histary of Sciencegnstraction"[1] إذ حلل حاجة الغرب إلى معرفة أعمق، وبيّن أنه أراد أن يجدد صلاته بالفكر القديم، فتطلع أول الأمر إلى المصادر العربية فانتقلت علوم العرب إلى الغرب عن طريق "صقلية" و"الأندلس" و"بالرمو" و"طليطلة". ولولا تمجيد العرب لحرية الفكر وتسامحهم العظيم في تلك العصور المظلمة التي اتسمت بالتعصب لتأخرت تلك النهضة التي استفاد منها الغرب أعظم فائدة. لقد كان إيمان العرب والمسلمين بالعلم يبهر طلاب المعرفة في مراكز الإشعاع الثقافي والعلمي المشار إليها. فتطلع طلاب العلم من الغرب إلى الإسلام فوجدوا في القرآن الدعوة الصريحة إلى تمجيد العلم والعلماء[2] كقوله تعالى:**{شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لاَ إِلهَ إِلاَّ هُوَ وَالْملاَئِكَةُ وَأُوْلُوْا الْعِلْمِ قَائِمَاً بِالْقِسْطِ}** (سورة آل عمران. الآية 18).

وقوله تعالى:**{يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنْوا مِنْكُمْ وَالَّذِين أُوْتُوْا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ}**

---

(1) الإسلام إزاء الفكر الغربي، مجلة دعوة الحق، أحمد أنور الجندي، العدد الأول، السنة الثانية، الرباط، نوفمبر 1964م، ص13 - 14.

(2) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصطفى نصر المسلاتي، ط1، نوفمبر 1986م، ص24.

(سورة المجادلة. من الآية 11).

وقولـه تعالى:{هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِيْنَ لاَ يَعْلَمُونَ} (الزمر: 9).

وقولـه سبحانه:{إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ العُلَمَاءُ} (سورة فاطر، من الآية 28).

وقولـه تعالى:{وَتِلْـكَ الأَمْثَـالُ نَضْـرِبُهَا لِلنَّـاسِ وَمَـا يَعْقِلُهَـا إِلاَّ العـالِمُونَ} (سورة العنكبوت، من الآية 43).

وهكذا كان هذا الانفتاح الأوروبي على التراث الديني والفكري الإسلامي دافعاً لإشعال جذوة الحماس العلمي في الغرب - وبدأت الرحلة - رحلة العلم.. إلى أعماق أوروبا عندما قام "جوبير دي أورلياك" Aurillac الذي صار البابا سلفستر الثاني tre II Silves برحلة إلى إفريقيا طلباً للحكمة في عهد "الحكم الثاني" المتوفى سنة 366هـ. مما كان لـه الأثر الكبير في نشر "جوبير" العلم العربي في أوروبا المسيحية[1].

وفي عهد "ملوك الطوائف، كانت "طليطلة" Tole do ذات مركز علمي وفكري وثقافي مرموق. لأنها كانت في ذلك الوقت على الحدود - بين الدولة العربية الإسلامية في الأندلس والدولة النصرانية في باقي مقاطعات أسبانيا، فامتازت "طليطلة" بمكتباتها، خاصة بعد أن انتقل إليها جزء من مكتبة "الحكم الثاني" وآلاف المجلدات من المشرق، وكان مطران "طليطلة" ريموند Raimumndo (1126 - 1152م) هو الذي شجع حركة النقل من العربية إلى اللاتينية. حيث ولع المترجمون بالعلوم العربية المترجمة عن اللاتينية أو المنقولة عنها، وهذا يؤكد أن أوروبا تلقت تراث اليونان عن العرب. واقتصرت قبل هذا التاريخ على شذرات بسيطة من هذا التراث، كان قد وضعها "مارسيانو كابيلا Marciana Capella" الذي عاش في شمال إفريقيا في القرن الخامس، أو ما وضعه القس "إيسيدور" في القرن السابق زمن "القوط الغربيين"

(1) دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الأدب 1965م، ص21 - 22.

وكذلك Rede الموقر الذي عاش في بريطانيا[1] هذا بالإضافة إلى نقل وترجمة المعارف العربية والإسلامية في جميع المجالات بحيث كان لها الأثر الكبير في تنمية حضارة أوروبا وتقدمها.

لقد كانت علوم الإسلام من أسس هذه الحضارة. وقد جمد الفكر الغربي هذه الحقيقة. وحمل على الإسلام حملته الظالمة دون تقدير لأي إنصاف أو رعاية لحق غير منكر، وأذاع على لسان أعلامه وكُتَّابه أن الفكر الإسلامي مضطرب وناقص. وأن الإسلام نفسه مليء بالقصور، على النحو الذي كشفت عنه كتابات "فولتير" وغيره من أقطاب الفكر الغربي الحديث[2] وبالرغم من أن للاستشراق دوره العلمي من الناحية الموضوعية حيث استطاع "هنكر Henker" حل الخط المسماري[*] 1850م الذي توسع فيه أوبرت Obert و"لورنسون Larenson" مما استطاع إجلاء الغموض عن حضارة سومر وجغرافيتها، وسلالاتها، وتاريخها، وتمكن "شامبليون" من فك رموز حجر رشيد من قبل 1822م فوصل إلى سر اللغة "الهيروغليفية" مما ساعد "جرمين" Germen على وضع معجم لها عام 1832م وشهادة "هيملكون Hemellcan بعد بعثته الاستكشافية إلى ساحل أوروبا الغربي حتى "جزر الكناري"[3] حيث قال: "إن الملاحين الفينيقيين وحلفاءهم القرطاجيّين اضطلعوا بأعمال أكبر خطراً من تأملات الإغريق في اللانهاية. إلاّ أن هذا المظهر العلمي كان مغلفاً بهدف تبشيري وسياسي كان هو الدافع الأهم للتبشير. لقد حاول بعض هؤلاء المبشرين أن يوهمونا بأن الإسلام في حاجة لأصوات ترفع عقيرتها لكي تدلي بأوزانها لمصلحة الإسلام ذاته. وقد تصوروا أنهم وضعوه في حلبة الانتخابات العامة أمام الرأي العام. فأوهمونا

(1) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصطفى نصر المسلاتي، مصدر سابق، ص25.
(2) الإسلام إزاء الفكر الغربي، مجلة دعوة الحق، مصدر سابق، ص12.
(*) الخط الذي عرف في العراق القديم، ولقد بدأ الكتابة به السومريون وكان يكتب بآلة تشبه المسمار على ألواح من الطين يسمى الواحد منها "رقم"!.
(3) تاريخ العلم، ج2، ساراتون، ترجمة لجنة من الأساتذة، القاهرة، دار المعارف، 1957م، ص156.

أن نقوم بمهمة التصفيق الحار كلما ارتفعت أقلام من الغرب تُقرض الإسلام قرضاً حسناً والحقيقة أن معنى الاستشراق - معرفة الشرق ودراسته يرتبط بطبيعة الروح الغربي المتطلع إلى خارج مجاله الثقافي والمعرفي بدافع القوى المتولدة عن وعيه المتنامي بالعالم في التاريخ الحديث، فالاستشراق في معظم ظواهره ومختلفها صورة من صور اصطدام وعي الغرب بعالم غير عالمه[1] فهو عالم مرتبط بالأيديولوجية الغربية المعادية للعروبة والإسلام بالدرجة الأولى كقوة متنامية وافقت التطور المادي الهائل منذ بداياته.

مولد الاستشراق:

تعود البدايات الأولى للاستشراق عندما بدأ الناس يدرسون اللغات ويجمعون المعلومات لأغراض عقائدية محضة - في العصور الوسطى ففي أسبانيا بدأت الدراسات العربية استجابة لحاجات العمل التبشيري. ثم سرعان ما فقدت هذه الدراسات جاذبيتها مع سقوط غرناطة (1492م). ثم استؤنفت كجزء من الدراسات السامية بصورة عامة في روما. حيث كانت الكنيسة مهتمة بتوحيد الكنيسة الشرقية. ثم جاءت الحركة الإنسانية Humanism في محاولتها البحث عن ثقافة عالمية. من خلال اهتماماتها السياسية والتجارية، فوسعت هذه الدراسات لتصبح مجموعة من الدراسات الإسلامية. وقد اهتم "وليام بوستيل Postel" (1510 - 1580) بدراسة لغات الشعوب، وجمع - وهو بالشرق - مجموعة هامة من المخططات. وكذلك تلميذه "سكاليجر Scailiger" (1540 - 1609) وفي عام 1586 استفادت اللغة العربية في أوروبا من المطابع التي أسسّها الكاردينال فردناند دومديتشي "دوق توسكانيا" حسب الهدف المعلن[2]:

(1) ملامح من حركة الاستشراق الفني، علي اللواتي، الحياة الثقافية، السنة الرابعة، مايو 1979م، ص43.
(2) تراث الإسلام، ق1، شاخت وبوزورت، ترجمة محمد زهير السمهوري، عالم المعرفة، الكويت، أغسطس (آب) 1978م، ص62.

- مساعدة المجهود التبشيري - ولهذا طبعت الأعمال الطبية والفلسفية لابن سينا بالإضافة إلى كتب القواعد والجغرافيا والرياضيات. في محاولة مستمرة قدر لها أن تتكرر في نهاية القرن السادس عشر الميلادي. وبداية القرن السابع عشر في باريس - وهولندا - وألمانيا، من أجل الحصول على معرفة أفضل.

والجدير بالذكر أنه كان للبابوية الدور الكبير في ذلك. فلقد اهتمت - البابوية - كما اهتم الكثير من المسيحيين بأمر اتحاد الكنائس. وحاولوا التوصل إلى اتفاق مع المسيحيين الشرقيين وهذا يعني دراسة لغتهم ونصوصهم. وكانت إنجلترا وفرنسا والمقاطعات المتحدة(*) أكثر اهتماماً بالتجارة ومخططاتها السياسية في الشرق. ومن جانب آخر أدت تفسيرات الكتاب المقدس، التي كانت أحد المواضيع الرئيسة للجدل بين البروتستانت والكاثوليك إلى دراسة فيلولوجيا(*) اللغات الشرقية. وأدى الخطر التركي إلى دراسة أوثق للإمبراطورية العثمانية وللإسلام مثل هذه الصلات والاهتمامات الوثيقة في ذلك الوقت بالإضافة إلى الاتجاه العام نحو تنظيم البحث العلمي تفسر ظهور شبكة استشراقية متلاحمة، وهكذا تأسس أول كرسي للعربية عام 1539م في الكوليج دوفرانس "التي كانت قد تأسست حديثاً وأخذت الطباعة - وخصوصاً طباعة الأحرف العربية التي جعلت أعمال الباحثين في متناول بعضهم بعضاً. وأخذ الأخصائيون الواحد تلو الآخر يجعلون شغلهم الشاغل تأليف الكتب التي تعتبر أدوات لا غنى عنها في العالم مثل كتب القواعد والمعاجم وشروح النصوص وفي مقدمتهم "توماس فون آربينوس" Tomas von Eroinius (1584 - 1624) الذي نشر أول كتاب قواعد للغة العربية، وتلميذه "جاكوب جوليوس" (1596 - 1667). وفي النمسا نشر "فرانز ميننسكي" F.Meninski معجمه الضخم. وكثرت كراسي الدراسات الشرقية. فلم تعد

(*) هولندا وتعرف مع بلجيكا بالأراضي المنخفضة.
(*) فيلولوجيا: أسس وجذور وتركيب.

باريس منفردة لوحدها فقد كان "فرانسيس فون رفلنجن" F. van Ravelingen (1539 - 1597) يقوم بتدريس اللغة العربية في "ليدن" منذ عام 1533م.

وأسس أوربان الثاني عام 1627م في روما كلية لنشر العلم Oleprpag Onde Callege وهي مركز دراسات حيوي، وكان "إدوارد بوكوك" E.Pocock أول من شغل كرسي للغة العربية في أكسفورد عام 1638م[1].

ولقد أثرت نسبية المعتقدات على المفكرين والجمهور المثقف قبل العلماء. لكن الجو الذي خلقته فتح الأبواب لهؤلاء الأخيرين بحيث استطاع من كان يجذبهم اهتمام شخصي بالغ إلى الشرق الإسلامي أن يعملوا دونما أي عائق. وقد استفاد ب. د. هربلو B.D Herblo من المواد الكثيرة المتراكمة فكتب كتابه "المكتبة الشرقية" Biblio Theque Orintel الذي نشره "جالان" Galland بعد وفاته عام 1697م. وهو أول محاولة لكتابة موسوعة للإسلام.

بعد ذلك تقدم العمل الاستشراقي في عصر النزعة العقلية متخذاً شكلاً جديداً وكان من أبرز أعلامه "ريتشارد سيمون" R.Simon الذي عالج في كتابه "التاريخ النقدي لعقائد وعادات أمم الشرق" Histoir Eritques Des Ereqnces Etdes collumes . Des Nahars Du lerant 1684 N.

عادات وطقوس المسيحيين الشرقيين أولاً. ثم عادات وطقوس المسلمين. وبالرغم من أن الجيل الثاني من المستشرقين من أصحاب النزعة العقلية انتقل من النزعة العقلية إلى مرحلة الإعجاب حيث استشهد "بيل" Bayle وكثيرون غيره بتسامح الإمبراطورية العثمانية إزاء جميع أنواع الأقليات الدينية وذكره كمثال للمسيحيين. كان هذا حينما لجأ أتباع "كلفن" في هنغاريا، وسيليزيا. وقدماء المؤمنين من قوقاز روسيا إلى تركيا. أو تطلعوا إلى الباب العالي في هروبهم من الاضطهاد الكاثوليكي

(1) نفسه، ص63.

أو الأرثوذكسي، وذلك مثلما فعل اليهود الإسبان قبل ذلك بقرنين[1].

إلا أن ذلك لم يمنع من ظهور كاتب مجهول لكراس يحمل عنواناً فيه الكثير من التحدي "محمد ليس مبدعاً" rOImpost No dMohame[2] تبع ذلك "فولتير" الذي يمزج (إعجابه بحقده) تجاه الحضارة الإسلامية. فقد تردد بين "دفتي كتابه دفاع عن محمد بوصفه رجل سياسة ذا تفكير عميق ومؤسساً لدين عقلاني. وبين استغلال الدين الرسمي لبلده من أجل الحملة على محمد ذاته ﷺ بوصفه ممثلاً لجميع المدعين الذين أسروا نفوس الناس بأساطيرهم الدينية ومع بداية القرن التاسع عشر ظهرت ثلاثة اتجاهات.

- شعور نفعي وإمبريالي بالتفوق الغربي مليء بالازدراء للحضارات الأخرى.

- ميل رومانسي إلى كل ما هو غريب يبتهج بالشرقي السحري الذي كان فقره المتزايد يعطي سحره مذاقاً خاصاً.

- تخصص علمي انصب معظم اهتمامه على العصور الماضية.

ولطبيعة القائمين بذلك كانت هذه الاتجاهات الثلاثة متكاملة فيما بينها أكثر منها متعارضة، وذلك بالرغم من أن المظاهر توحي بعكس ذلك.

بالنسبة للجانب الأول: لم ينشأ الميل إلى كل ما هو غريب من تغير في العلاقات بين الشرق والغرب. بل من التحول الداخلي الذي طرأ على حساسية الغرب التي أصبحت تتوق إلى معرفة كل ما هو غريب، ومن هذا الميل استمدت مدرسة "العاصفة والاندفاع" الألمانية sturm undbrang التي ينتمي إليها "هردر Herder" (1744 - 1803) الذي أبدى اهتماماً بالآداب الشرقية والإسلامية. أما بالنسبة للجوانب الأخرى فقد برز "سلفستر دي ساسي Silverster Desacy " الذي أصبح أستاذ جميع

(1) نفسه أيضاً، ص65 - 66.
(2) نفسه، ص77 - 78.

المستشرقين الأوروبيين. وأصبحت باريس في عهده الكعبة التي يؤمها جميع الذين يرغبون في التخصص بدراسة الشرق الأدنى. وبدأ إصدار المجلات المتخصصة واعتماد الجمعيات المهتمة بقضايا الاستشراق بشكل واسع ومكثف منذ ذلك الوقت وازدهرت كذلك المؤسسات المتخصصة بشكل لم يسبق له مثيل فقد تشكلت "جمعية باريس الآسيوية Tique Deparis Sociote Asia " في سنة 1821م التي أصدرت دوريتها وفي سنة 1834م ظهرت "الجمعية الآسيوية الملكية البريطانية العظمى وايرلندا Townal of the Rayal Asu Atic Society of the Great Britain and Irland " بعد أن تأسست الجمعية نفسها اعتباراً من 1823م. وشهد عام 1842م تأسيس الجمعية الشرقية الأمريكية التي كان لها بدورها مجلتها الخاصة. وفي عام 1849م صدرت مجلة "الجمعية الشرقية الألمانية Feitschrift Der Deutschen Morgenklandischen Geselisschaft " في لايبزج. وقد أصدرتها الجمعية وهي التي تأسست قبل ذلك بعامين. وكانت الحركة التي أدخلت الثقافة الغربية إلى روسيا منذ النصف الثاني من القرن الثامن عشر قد أنتجت بعض الأعمال في حقل الاستشراق. فمنذ عام 1804م توسع علم اللغات الشرقية على المستوى الجامعي في "خاركوف Kharkow " والأهم من ذلك وصول الاستشراق إلى "قازان Kazan " التي كانت تقع ضمن أراضي إسلامية، وقد أدت السياسة الإسلامية الداخلية للدولة الروسية إلى ازدياد سريع في هذا المركز في "قازان"[1].

هذا ولقد زادت الدراسات الاستشراقية لتشمل كل بلدان العالم الإسلامي والعالم الثالث تمشياً مع حركة الاستعمار الحديث المتمثلة في الغزو الثقافي وضرورة فرض النموذج الأوروبي والأمريكي على الشعوب.

أهداف الاستشراق:

(1) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصدر سابق، ص8.

يدعّي المستشرقون وأنصارهم أن هدف الاستشراق هو البحث والدراسة لكل ما يتعلق بعادات وتقاليد الشرق القديم وما يرتبط بها من علوم ومعارف وديانات خاصة الإسلام. ولقد ظهرت كلمة "الاستشراق" Orientalist - مستشرق أول ما ظهرت في انجلترا حوالي سنة 1719م وكلمة Orien Talisme في فرنسا عام 1779 وأدرجت كلمة الاستشراق في الأكاديمية الفرنسية Cdic Deli Academie Francise عام 1838م وأخذت فكرة إيجاد فرع متخصص من فروع المعرفة لدراسة الشرق تلقى المزيد من التأييد. ولم يكن هناك حتى ذلك الوقت أخصائيون بأعداد تكفي لتأسيس مجلات أو جمعيات تهتم حصراً ببلد واحد أو بشعب واحد. أو منطقة واحدة في الشرق[1].

وبالرغم من أن هؤلاء أيضاً يرون أن مفهوم الاستشراق يشير إلى تعمق أكثر في الدراسة. إلا أن الواقع الاستشراقي كان يرتبط بالواقع الموضوعي لبلد المستشرق ذاته، يعترف "فالزر Valzer " بأن حركة الاستشراق قد قامت جنباً إلى جنب مع التحولات السياسية والاجتماعية والاقتصادية التي سادت العصور التي عاش فيها أولئك المستشرقون. فلا يمكن إذاً أن نفصل بين ما شهدته من ظروف سياسية واقتصادية واجتماعية، وغيرها وبين ما أنتجه أولئك المستشرقون من دراسات. وهذا يعني أن المجتمعات العربية خضعت بالكامل للاستعمار الثقافي. وحتى رغم هذا الاستقلال أو الرفض لهذا الاستعمار ظلت الخيوط الثقافية الاستعمارية تلاحق الإنسان العربي كظله، ولقد ألفها، ولطول المدة أصبح لا يميز ما بين الدخيل والأصيل في واقعه. وبالرغم من أن المجتمع المحلي كان يتسامح في شيء من هذا القبيل إلا أنه كان يفرز مضادات وقائية لحماية نفسه منها، ويبرز رد فعل مركباً ومعقداً يتألف من الكبرياء المشوبة بالشكوك الدينية والخوف من الابتكار والتجديد..!

(1) العرب تاريخ ومستقبل، جاك بيرك، تعريب خيري حماد، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، القاهرة 1971م، ص377.

إن نوايا "الاستشراق" بالرغم من كل الادعاءات - لم تكن نوايا علمية - بل أن المبشرين والمستشرقين أخذوا من ادعاء المعرفة والعلوم والبحوث في الآداب واللغات القديمة جسراً ينطلقون منه لتدمير الحضارة العربية الإسلامية للوصول إلى الأهداف التي أرادوها وهي: إلصاق الطقوس العربية قبل الإسلام بالقرآن. والإيحاء بأن محمداً ﷺ قد استطاع أن يبرز بذكائه وتصوره الخلاق كما قال "مونتجمري وات W. Montgomrey " (لأن هناك نفراً من الناس وهبوا هذا التصور الخلاق فتمكنوا من الإبداع بسبب هذا التصور Creative Immaginatirn فهو الذي عزا "النبوة" أو الوحي إلى نوع من النشاط الذهني غير العادي الذي يظهر عند بعض الموهوبين. من أجل التشكيك في الإسلام وضربه في الصميم. فهذا "ألفرد غوليوم A. Guillaume " أكثر المستشرقين دعوة من أجل تأكيد أن الإسلام يحوي مصادر يهودية ومسيحية، وكذلك "غيومان Guman " و"ف لوستر F. Loster " الذي تأثر بالروح العدائي ذاته فنسب لمحمد ﷺ أنه صانع الإسلام. وهذا يوضح مدى التحامل الوقح الذي كان يحكم الاستشراق وتطلعاته ضد التراث العربي الإسلامي.

وكما يقول الأستاذ "مصطفى نصر المسلاتي"[1]: إن الفكر الغربي الذي تأثر بالمنهج الديكارتي، لم يستطع أن يرتفع إلى مستوى الموضوعية. كما أنه لم يستخدم المنهج العلمي الجاد في تخليص تراث الإسلام القديم من الشوائب. كما أن الأهداف السياسية الاستعمارية هي التي دفعت "جون باجوت جلوب باشا J. B. Globe إلى القول "بأن محمداً تأثر باليهودية أكثر من المسيحية. لكون هذا الإنسان الذي عاش في الشرق الإسلامي قد لعب دوراً تاريخياً معروفاً.

ومما يؤكد هذا الموقف الاستشراقي ما قاله "زويمر" أثناء عقد مؤتمر "لكنو Likno " للاستشراق بالهند عام 1911م بعد أن درس المؤتمرون الأحوال السياسية

(1) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصدر سبق ذكره، ص18.

المضطربة في البلاد الإسلامية: "إن الانقسام السياسي الحاضر في العالم الإسلامي دليل بالغ على عمل يد الله في التاريخ وانتصاره للديانة المسيحية كي تقوم بعمل. إذ أن ذلك يشير إلى كثرة الأبواب التي أصبحت مفتحة في العالم الإسلامي على مصاريعها. إن ثلاثة أرباع العالم الإسلامي يجب أن تعتبر الآن سهلة الاقتحام على البعثات التبشيرية[1]. وهكذا أصبحت المطبعة الأمريكية والمدارس الأمريكية. وكما يقول "جب Gibb " "وسيلة لإعداد رجال ونساء كثيرين ليكونوا مواطنين أمريكيين" لأن الإسلام على رأي المستشرق الألماني "كارل بيكر" Beccker"أقام سداً في وجه النصرانية، ثم امتد إلى البلدان التي كانت خاضعة لها" ولهذا يجب أن "يمحى الإسلام من العالم" المبشر جيسب C. F Jessap (58 - 433)[2].

وضع المفكر المسلم "مالك بن نبى أهم الأهداف التي يسعى إليها الاستشراق خصوصاً في هذا العصر بقوله[3]: "إن أوروبا اكتشفت الفكر الإسلامي في مرحلتين من تاريخها. فكانت في مرحلة القرون الوسطى قبل وفاة "توما الأكويني A. Tomas " "تريد اكتشاف هذا الفكر وترجمته من أجل إثراء ثقافتها بالطريقة التي أتاحت لها فعلاً تلك الخطوات الموفقة التي هدتها إلى حركة النهضة ومنذ أواخر القرن 15". ويؤكد "مالك بن نبى" أن المرحلة الثانية - المرحلة العصرية - الاستعمارية اكتشفت الفكر الإسلامي مرة أخرى لا من أجل تعديل ثقافي. بل من أجل تعديل سياسي لوضع خططها السياسية مطابقة لما تقتضيه الأوضاع في البلاد الإسلامية من ناحية، وتسيير هذه الأوضاع طبقاً لما تقتضيه هذه السياسات في البلاد الإسلامية، لتسيطر على الشعوب الخاضعة فيها لسلطانها[4] هذا، ويحدثنا التاريخ أن الأوروبيين قد فطنوا بأن

(1) نفسه، ص14 - 15.
(2) التبشير والاستشراق، محمد إسماعيل الطهطاوي، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، 1977م، ص99.
(3) الغزو الثقافي سلاح الصهيونية والصليبية الجديدة، محمد صالح يونس، ط1، منشورات رسالة الجهاد 1980م، ص12.
(4) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مالك بن نبي، القاهرة، مكتبة عمارة 1970م، ص9.

المسلمين يؤلفون تهديداً حقيقياً للعالم المسيحي الغربي. وتصورت أوروبا في مطلع العصور الوسطى أن هناك شعباً هائجاً أسموه العرب أو "السراسنة"(*) وهم ليسوا مسيحيين. كان وصولهم إلى إيطاليا وأسبانيا (كارثة) فأسموهم أيضاً "البرابرة". ولقد لخصّ "أوبيد المبجّل" Rener Le Abbede موضحاً كره الغرب لهؤلاء السراسنة أو العرب المسلمين بقوله[1]: "قام الوباء المتمثل بالسراسنة المسلمين بتخريب مملكة بلاد الغال(*) بعد مجازر أليمة ويائسة. لكنهم سرعان ما لقوا عقابهم الذي يستحقونه على غدرهم، لقد اهتم الاستشراق بدراسة اللغة العربية وبالإسلام. بعد أن غزا الاستعمار بلاد الشرق عامة. درس تقاليده وعاداته وحضارته وجغرافيته. لكن الملاحظ أن العناية بالإسلام وحضارته كان أعظم اهتماماته ويمكن بشيء من الإيجاز أن نستخلص الأهداف الأخرى التي صاحبت اهتمامات الاستشراق السياسية، وإن كانت كل هذه الأهداف مرتبطة بعضها ببعض ومتداخلة أيضاً، لأنها تخدم الهدف النهائي للاستشراق، وهو الاستيلاء على الآخر، وتفتيت البنى التي تكوّن هذا الآخر [2] وأبرزها:

- الأهداف الدينية:

إذ تؤكد معظم المصادر أن الاستشراق بدأ بنشاط الرهبان في مجال الترجمة، ولقد اتضح لصاحب النظرة الثاقبة أن الترجمة كانت متبلورة ومحرفة، حتى أن القرآن الكريم (آياته المترجمة) لم تسلم من التحريف. فهذا المترجم المستشرق "ج. داوود" يترجم آيات القرآن حسب أهوائه، بعد أن غير عرض وترتيب سُوَر القرآن الكريم - من الطريقة الترتيبية - كما يُسميها

(*) لفظ أطلقه الأوروبيون المسيحيون على سكان شمال أفريقيا وهو رديف للمتوحشين.

(1) نفسه، ونفس الصفحة.

(*) فرنسا الحالية وكانت تعرف قديماً باسم (غاليا).

(2) الصورة العربية والدراسات الغربية، شاخت وبوزورت، ترجمة محمد زهدي السنهوري، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، أغسطس 1978م، ص31.

المترجم - الطريقة التقليدية - كما وردت على نسق مصحف سيدنا عثمان رضي الله عنه - والمنقول من أفواه الحفاظ من الصحابة سماعاً من النبي ﷺ إلى ترتيب تسلسلي زمني - يرى المترجم أنه يتفق مع تسلسل نزول السُّوَر تسلسلاً زمنياً - وهو يرى أن هذه الطريقة أجدى للذين لم يدخلوا الإسلام Theuniniliated [1] وهي في الحقيقة تهدف إلى زرع بذور الشك في عقول المسلمين، بما تتضمنه من سلبيات وما تحتويه من تزوير ودس يستهدف النيل من الدين الإسلامي الحنيف[2]:

ففي سورة البقرة:{وَأَقِيمُواْ الصَّلاَةَ وَآتُواْ الزَّكَاةَ وَارْكَعُواْ مَعَ الرَّاكِعِينَ} (سورة البقرة، الآية 42).

Worship with worshippers

والأفضل:

And bow your heads with those who bow

وفي الآية 46 {يا بني إسرائيل} حذف حرف النداء "يا" وفي الآية 54 {وإذ قلتم يا موسى} حذف حرف النداء "يا" وفي آية: {أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير، اهبطوا مصر فإن لكم ما سألتم} (سورة البقرة الآية 60). ؟؟؟

قال المترجم:

Would you exchange that which is good for what is worse go back to Egypt.

بمعنى - اهبطوا - عودوا إلى مصر الفرعونية. وليس إلى مصر من الأمصار، أو

(1) الاستشراق السياسي، مصدر سابق، ص263.
(2) الدعوة الإسلامية، السنة الثانية، العدد 187، الموافق 11 الحرث 1987م، ص4.

مدينة من المدن، وهي المقصود[1] والصحيح: Go you down to any town بمعنى اهبطوا مصر، أي اهبطوا مدينة.

ومن أخطر الترجمات ترجمة المستشرق "ج. داوود" نفسه لسورة "الرحمن" التي طلب المترجم من القارئ مقارنتها بالمزمور 136 وهو أحد مزامير سيدنا داوود عليه السلام. هذا المزمور الذي يمجد انتصار إسرائيل على مصر الفرعونية. وعلى الملوك العظماء الأعزاء، ويعطي الأرض ميراثاً لإسرائيل عبده ومن الملاحظ أنه لا يجوز أخلاقياً وأدبياً مقارنة سورة الرحمن بهذا المزمور الغنائي، فالمترجم هنا يريد إظهار أحقية الإسرائيليين في الميراث والأرض والانتصار[2]، ومن جانب آخر أثار المترجم شرحاً حول سبب نزول سورة التحريم "أن محمداً وجد مع أمَة قبطية لم يذكر اسمها وأن التي وجدته معها هي "حفصة" وقد وعدها بأن ينفصل عن هذه الأمَة القبطية. وقامت حفصة بإبلاغ عائشة وهي زوجة أخرى له، وليحل محمد من وعده لحفصة نزلت هذه السورة، لقد تعمد المترجم أن يوضح أن هذه الأمَة القبطية هي زوجة للنبي ﷺ أو أنها أم ابنه إبراهيم مما يجعل القارئ يضع أكثر من علامة استفهام حول شخصية محمد هكذا (من أنه في حالة زنا مع أمَة قبطية)[3] ولقد حدث كل هذا لأكثر من سبب:

1- لأن الغرب خاف انتشار الإسلام. خصوصاً قبل وبعد الحروب الصليبية، وفي أثناء قوة الإمبراطورية العثمانية، حيث استغل الرهبان والكنائس هذا الجو النفسي، فأسسوا التبشير الذي بدأ يعيث فساداً فالتقت دوافع التبشير بالاستشراق، في محاولة لاقتحام العالم الإسلامي، ودليل ذلك ترجمة "ج. داوود" الحديثة للقرآن الكريم.

---

(1) نفسه، ونفس الصفحة.
(2) نفسه، العدد 189، الموافق 9 الكانون 1987م، ص4.
(3) نفسه أيضاً، ص5.

2- نظراً لانحسار الفكر الديني، وانتشار الفكر المادي في المجتمعات الأوروبية الذي صاحب نمو المجتمعات الأوروبية أراد قادة الفكر وسدنة الكنيسة أن يصرفوا الإنسان (الأذهان)، وكذلك أن يصرفوا الناقدين والشاكين في المسيحية، ويؤكدوا أن الإسلام دين مخيف لا يستحق الانتشار. وأنه قاب قوسين أو أدنى من مجتمعاتهم وهو ما أكده المستشرقون "والز" و"زويمر" و"دي ساسي" الفرنسي.

- الأهداف الاقتصادية:

برز التراث التجاري الإسلامي - إذ شاء المرء أن يحدد معالم مثل هذا التراث - نتيجة لفترة من التغير السريع، ضمن بنية ثابتة ومستمرة إلى حد غير قليل[1] والنقطة المركزية هنا هي المرونة في العلاقة بين التراث الديني الرسمي ومجموعة أنماط السلوك الواقعية[2] التي لا يمكن اعتبارها علّة في بنية الاقتصاد التجاري الإسلامي. وإذا كان هناك من خلل في الاقتصاد التجاري الإسلامي البحري[*] (في البحر المتوسط) وعن كون بعض فئات التجار الذين قد تمكنوا من تدعيم نشاطاتهم الاقتصادية سياسياً. وهذا يدفعنا لتوضيح أنهم لم يكونوا مجرد متقبلين لسمة معينة في بيان مجتمعاتهم التي لم يكن لهم أي سلطان عليها، (كما كان الحال بالفعل) كما أنهم لم يمتلكوا (ينتهزوا) الفرص الملائمة. كما حدث بالنسبة للمدن اللاتينية - في العصور الوسطى وهكذا، فإن مشاكل الاقتصاد الإسلامي لا تبدأ في الظهور إلاّ عند حدوث التقدم الاقتصادي لأوروبا بعد العصور الوسطى[3] عند بداية

(1) تراث الإسلام، شاخت وبوزورث، مصدر سابق، ص312.
(2) نفسه، ص342.
(*) كان المسلمون يسيطرون على الطرق التجارية البحرية بالكامل.
(3) نفسه أيضاً، ص345 - 346.

محاولات الاستشراق واقتحام الشرق.

فلقد بدأ الاستشراق يتطور على يد الرهبان والتجار والمكتشفين والضباط. فمنذ أن شهدت حركة الصحاري العربية الرحالة والمغامرين، منذ ذلك الوقت كانت اهتمامات الاستعمار تستكشف كنوز الصحاري وتستطلع آفاق البلاد العربية من أجل وضع الخرائط ودراسة مجتمعات الصحراء دراسة علمية لتأمين طرق التجارة أولاً. ولمعرفة أسرار مجتمعات الصحراء ثانياً. ولقد وضحت الوثائق المختلفة هذه المعاني بشكل جليّ، وما مذبحة "موريس"[1] في غدامس، ومصرع عشرات الرجال في الصحراء الليبية وغيرها، إلاّ دليل على تخطيط الاستشراق ودخوله مغامرات تاريخية لتقديم المعلومات الجاهزة، من أجل المعلومات المرسومة سلفاً.

- الأهداف العلمية:

كان للهدف العلمي دوره في الدفع بالاستشراق، ولكن الذين قاموا بهذا الهدف قليلون جداً. فمنذ عصر النزعة العقلية برز عدد من المستشرقين المستنيرين أمثال "ريتشارد سيمون" Richard Simon الذي عالج عادات وطقوس المسلمين باتزان مستنداً إلى كتاب لأحد الفقهاء - دونما قدح أو انتقاص - بل أنه عندما اتهمه مستشرق آخر (آرنولد Arnould) بأنه كان موضوعياً أكثر من اللازم نحو الإسلام. نصحه بأن يتأمل "التعاليم الرائعة للأخلاقيين الإسلاميين" كما أن مواقف المستشرق "ج. ج. رايسكه J. J. Riske " (1716 - 1774) الموضوعية، جعلته يتعرض لاضطهاد اثنين من الأساتذة الكبار في الاستشراق، هما شولتنز Schultens وميخايليس Micqaelis لأنهما كانا يريدان إبقاء الدراسات العربية ضمن "الفيلولوجيا الدينية" وتفسير الكتاب

(1) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصدر سابق، ص246.

المقدس[1] ولكن وبعد مرور السنوات، وانفتاح الشهوة الإمبريالية بكاملها على العالم، استغل تراث هؤلاء العلماء أسوأ استغلال، بعد أن تم تشويهه من قبل مجتمعاتهم.

– الأهداف السياسية:

لقد تمثلت أهداف الاستشراق السياسية في إرسال المتخصصين في هذا المجال على شاكلة القناصل المستشرقين والتي كانت مهمتهم تتمثل في الاتصال بالعلماء ورجال الفكر لمعرفة أسرار البلد المراد اقتحامه وتركز الدراسات الاستشراقية في فكرة "محاربة الدين الإسلامي" عن طريق معرفة مواطن القوة والضعف في المجتمعات الإسلامية ذاتها ودس الغث في السمين، وتكريس الشك في العقيدة والتراث لكي يفقد المسلم ثقته بحضارته وتراثه، لتسهيل إحلال الجديد الوافد، بعد استلاب القديم المزعزع والمشكوك فيه تحت أضواء الانبهار الجديد.

ولقد كان أخطر تكريس لهذا المنطق ما مارسته إيطاليا في ليبيا، وفرنسا في الجزائر ولبنان حيث ارتفعت بعض الأصوات وبالذات في لبنان لإحلال الحروف اللاتينية محل العربية[*] بحجة عدم قدرة هذه الأخيرة على مواكبة التطور، بل والتشكيك كما فعل وات Watt في معنى النبوة التي عزاها إلى التصور الخلاّق وإحياء اللهجات القديمة من أجل زرع التجزئة، وترسيخ الدور الجديد الذي يريده المستشرقون المستعمرون وأعداء العروبة والإسلام.

وعلى كل حال، لم يكن بروز الهدف السياسي للاستشراق وليد المرحلة الحاضرة، بل هو قديم يعود إلى الصراع الصليبي الإسلامي في الأندلس حيث حروب الاسترداد Reconquistra التي دعمتها الكنيسة والممالك الأوروبية كلها، فالذين أسماهم الأوروبيون "بالسراسنة" يبدون في أعين الغرب عبارة عن "كارثة" ولم تكن

(1) تراث الإسلام، ق1، مصدر سابق، ص67.
(*) يعتبر الشاعر سعيد عقل من أبرز رموز هذا الاتجاه في لبنان.

هذه الصورة البشعة التي اعتمدت عليها أوروبا ناشئة عن ردود الفعل التي رافقت الحملات التي كانت تشن على حدود اسبانيا، والتحالفات التي عقدت مع المنشقين الأمويين الذين توافدوا على "اكس لاشابل" طلباً للمساعدة[1] وكذلك القتال الذي نشب ضد رجال البحر المسلمين من قبل القراصنة في جزر المتوسط ومنها كورسيكا وسردينيا وباليرمو (صقلية) بإيطاليا، بل هو صراع الغرب المسيحي وعداؤه التاريخي للشرق الإسلامي.

إن سيطرة المسلمين وانتشار حضارتهم في أسبانيا كوّن صورة أسطورية مشوهة عنهم، انتشرت بين عامة الناس من المسيحيين واليهود، كما أن التحليلات التي ظهرت في تلك الآونة استهدفت الإسلام والتشويه المتعمد له إنما كانت بفضل المقاومة والدفاع عن المسيحية التي باتت في خطر أمام الزحف الحضاري الإسلامي. ولقد كان لاستعادة صقلية على يد "روجر الثاني النورماندي عام 1060م" ودخول "ألفونسو" طليطلة عام 1085م، ووصول جودفري دي بوربون القدس عام 1099م والذي أدى إلى فتح الجهات الثلاث، إلى اتصال وثيق مع المسلمين، فأخذت صورة الإسلام تتأثر لعدة قرون بتشويهات المنافسة الأيديولوجية التي لابد منها[2] **على أساس إبراز صور ثلاث، تتمثل في:**

1- أن العالم الإسلامي بنية سياسية وأيديولوجية عدائية.

2- أنه حضارة متميزة ومختلفة.

3- كما أنه إقليم اقتصادي.

وعلى هذا الأساس بات الاستشراق حصيلة لإسقاطات هذا الوعي على الشرق كنواة لموقف أيديولوجي يؤلف الأرضية التي تتحرك فوقها أنشطتها الفلسفية والعلمية

(1) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصدر سابق، ص32.
(2) تراث الإسلام، شاخت وبوزورث، مصدر سابق، ص32.

والفنية[1] والتي ترتكز على نظرة انتقاص وربما ازدراء لخصوصية الشرق وإنجازاته الحضارية.

الوطن العربي هدفاً للتبشير والاستشراق:

أ – المشرق العربي:

يرى المستشرق "القس سيمون Fre. Simon أن الوحدة الإسلامية تساعد المسلمين على التخلص من السيطرة الأوروبية - لهذا جاء المستشرقون في ثوب جذاب لسلب المسلمين وحدتهم وتمزيقهم، وهو الهدف الأساسي (للعلماء) المستشرقين الذين اتخذوا العلم ستاراً مموهاً لذلك الهدف. فلقد كانت مهمة (الغزاة الجدد) إثارة الفتن والقلاقل في البلاد العربية والعالم الإسلامي لتسهيل مهمتهم في السيطرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية على العالم الإسلامي. ولقد بدأ هؤلاء غزوهم عن طريق إحياء العصبيات العرقية بين المسلمين كالدعوة "للقومية الطورانية في تركيا" تلك الدعوة التي أساءت للمسلمين وجعلت أرضهم خصبة للفتن والقلاقل ولما تحقق لهؤلاء هدفهم في إحياء النعرات العصبية والعربية، أخذوا يفسدون لغات هذه الشعوب ولاسيما اللغة العربية "لغة القرآن الكريم" التي كانت الهدف الأساسي لغزوهم لأنها الرابط المتين الذي يجمع بين المسلمين جميعاً. وبعد نجاحهم في تفكيك الوحدة العربية والإسلامية ها هم يدعون لإحياء الإقليمية والشعوبية، بين أبناء الأمة الواحدة والقومية الواحدة[2].

ويحدثنا التاريخ أن النصارى كانوا هم الدعاة الأوائل للانفصال عن الدولة العثمانية على أساس أن الإسلام يشكل خطراً عليهم على أساس طائفي وعشائري، فها هو المطران "مبارك" في باريس يصرح عام 1949م (أن لبنان بلد مسيحي يحاول

(1) ملامح من حركة الاستشراق الفني، علي اللواتي، الحياة الثقافية السنة الرابعة، مايو 1979م، مصدر سابق، ص43.

(2) الغزو الثقافي سلاح الصهيونية والصليبية الجديدة، محمد صالح يونس، مصدر سابق، ص14.

المسلمون استعباده كما يحاولون استعباد جميع المواطنين الذين يسكنون معهم في بلد واحد كاليهود في فلسطين)، ثم يخلص بعد ذلك بدعواه الصريحة بل الوقحة (بأن يكون لليهود وطن قومي في فلسطين كي يتمكنوا من العيش الهادئ)[1]. وهذا "سعيد عقل" يدعو لكتابة اللغة العربية بالحرف اللاتيني بدل الحرف العربي، وذلك بقصد إبعاد الأجيال المقبلة عن التراث الفكري الإسلامي، في مواصلة واضحة لخطط الاستشراق والتبشير التي افتخر بها - ذات يوم، فؤاد أفرام البستاني في محاضرة عن "مارمارون"(*) بقوله[2]:

(حتى إذا أطلت طلائع الصليبيين "على لبنان" أمكن للموارنة أن يمّدوهم بثلاثين ألف نبّال، أجمع الفرنجة على الإعجاب بشجاعتهم ومهارتهم).

وهكذا كان الفكر والمدارس الإرسالية طليعة متقدمة تمهد السبيل أمام جيوش الغزو والاحتلال العسكري، وهكذا أصبح المشرق العربي مسرحاً مفتوحاً وميداناً للتنافس الاستعماري بين الدول الغربية: فرنسا، وإيطاليا، وروسيا القيصرية، وبريطانيا، والولايات المتحدة وكان الأمريكيون أسبق المستعمرين في فتح المدارس التي تهدف لتخريج الواعظين والمبشرين والتي بلغت في "الديار الشامية" وحدها 174 مدرسة[3] تلاهم الفرنسيون، كذلك قامت مدارس إنجليزية ودانمركية وسويدية وحتى روسية، وكلها بهدف واحد هو إخضاع المسلمين للسيطرة الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وزرع بذور الفتنة والاقتتال بين المسلمين (وتنصيرهم) بعد عمليات غسل دماغ تفرض على الدارسين في هذه المدارس.

ب – المغرب العربي:

---

(1) صحف بيروت، 1949/3/25م.

(*) راهب سوري الأصل أقام في لبنان وتنتسب إليه الطائفة المارونية.

(2) من محاضرة الندوة اللبنانية، فؤاد أفرام البستاني، السنة الثانية، 5 - 6 بيروت، 1948/6/21م، ص167.

(3) الغزو الثقافي سلاح الصهيونية والصليبية الجديدة، مصدر سابق، ص26 - 27.

اقترن الوجود الاستشراقي في غزوه المسلح لليبيا سنة 1911م بفيالق على شكل بعثات تبشيرية دفعت بها الكنيسة الإيطالية إلى شمال إفريقيا لتحقيق صورة فكرة (مستعمرة المنفى). إلاّ أنه من المؤكد أن هذه البعثات التبشيرية ذات النزعات السياسية قد سبقت الجيوش المحتلة بزمن، وكسلسلة متصلة الحلقات، فقد فعلت إيطاليا في أسلوبها التبشيري كما فعلت فرنسا في تونس والجزائر والمغرب، من أجل إعادة خارطة إمبراطورية مسيحية تبدأ من المغرب الأقصى وحتى مصر، لأنها كما أكدت كتاباتهم وتصريحاتهم "بقايا أمة متناثرة مسيحية استرخت واختلطت بالاعتداءات البربرية"[1] معتمدة على نغمة التخلف الأساسي للعرب، وقصور هذا العنصر العربي في مجالات التقدم الحضاري - ومنطلق إلى شرق إفريقيا بحجة نقل الحضارة، ونشر الديانة المسيحية عن طريق التمهيد لها بإنشاء المدارس.

يقول "أحمد صدقي الدجاني"[2]:

"ففي ليبيا توسعت إيطاليا في افتتاح المدارس في نطاق نشاطها الاستعماري تمهيداً لاحتلال البلاد، فأنشأت مدارس إيطالية في بنغازي والخمس ومحلة الظهرة بطرابلس، وملجأ للصبيان ومدرسة ابتدائية للذكور وأخرى للإناث، ومدرسة عليا لتعليم الكبار، بهدف - كما يقول الرحالة التونسي "الحشائشي" (إيجاد جماعة من خريجي هذه المدارس موالية لها وتأتمر بأمرها ليس في ليبيا، بل وفي عاصمة الخلافة الإسلامية "إسطنبول".

وهكذا وتحت ستار المدارس والثقافة مهدت إيطاليا لاحتلال ليبيا وإنقاذها من البربرية والاحتلال الوحشي(!!).

ويعتبر القس "جوزيبي سابينو Giuzihbe " الذي ينتمي إلى جماعة "سان لازار"

(1) حكاية مدينة طرابلس، خليفة محمد التليسي، الدار العربية للكتاب، 1974م، ص196.
(2) ليبيا قبل الاستعمار، أحمد صدقي الدجاني، القاهرة 1971م، ص297.

من المبشرين الأوائل الذين كان لهم دور في هذا المجال فلقد عاش في الشرق فترة طويلة، وبعد أن عاد إلى إيطاليا أراد أن يكون لبلاده وجود في شكل ميناء على البحر الأحمر، لقد كان "جوزيب" في هذا يعبر أكبر تعبير عن رأي "ألفونس دولامارتين Lamartine " عندما أكد أن الشرق والمدن الإفريقية تحت الاحتلال الوحشي، فيعلن أن الحرب المقدسة الصليبية سواءً كان صداماً مسلحاً أم عن طريق التبشير هي المهمة الكبرى التي تشغل بال الرأي العام الأوروبي! وهذا ما حدث في ليبيا عندما حاولت إيطاليا تنصير الأطفال والشبان ولجأت لإرسالهم إلى إيطاليا ليعيشوا هناك، ثم ما لبثت أن وضعت خطة كاملة اقتصرت على تعميق الثقافة الإيطالية بهدف قطع جذور هذا الشعب ومرتكزاته ليسهل عليها التنصير والسيطرة حسب خطة الكنيسة الشاملة ضد المسلمين، والتي تبرز أن المهمة الأولى التي يوقف رجال التعليم عليها جهودهم في البلاد العربية هي بالدرجة الأولى مهمة استعمارية تبشيرية، والتي وضحها أخيراً الدكتور "نيبروز Neprose " رئيس الجامعة الأمريكية بلبنان بقوله[1]: "إنه يجب تحويل المسلمين إلى نصارى، وعلى الرغم من أن التبشير يتناول البوذيين والبراهمة أيضاً، فإن المقصود الأول بالجهود التبشيرية التي استطاع المبشرون أن يلجأوا إليها في سعيهم هو العمل على فتنة المسلمين عن دينهم" وهذا يوضح إلى أي مدى بلغ خوف الكنيسة، إذ جاء في "مجلة العالم الإسلامي The Muslim World " ما يؤكد هذا الخوف حيث قالت المجلة: (إن شيئاً من الخوف يجب أن يسيطر على العالم الغربي ولهذا الخوف أسباب منها: أن الإسلام منذ أن ظهر في مكة لم يضعف عددياً، بل دائماً في ازدياد واتساع، ثم إن الإسلام ليس ديناً فحسب، بل إن من أركانه الجهاد، ولم يتفق قط أن شعباً دخل في الإسلام، ثم عاد نصرانياً).

وهكذا يتضح لنا أن البابوات هم الذين يضطلعون بمهمة تأصيل الكراهية لدى

(1) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصدر سبق ذكره، ص171.

الرأي العام المسيحي بأن الإسلام دين خطر يجب القضاء عليه قبل أن يتغلغل وينتشر في أرجاء العالم[1].

في كتاب "شمال إفريقيا والصحراء" وضّح الرحالة الأمريكي "وودبيري جورج Wood Bery George " أنه قد تأسست إرساليات نصرانية مهمتها التبشير وتمهيد الطريق للسيطرة على ليبيا حيث نظرة الثقافة الإيطالية، والاعتقاد المتفق عليه بالنسبة إلى ليبيا "لكونها الشاطئ الرابع لإيطاليا" الذي صاحب نمو القوة الإيطالية وتطلعاتها خارج الحدود التي تعتمد على مقولتها، أما بالنسبة للماضي فما نسميه اليوم ليبيا، اعتبر من ضمن الحيّز الواقع للبحر المتوسط.

وهذا كله يوضح أن الاستشراق الإيطالي باستثناء القلة، كان ممهداً مخلصاً للاحتلال الإيطالي وخادماً مطيعاً لتنفيذ أغراض هذا الاحتلال الذي وجد في البحث الإثنوجرافي والانثروبولوجي والثقافة الشعبية خير معين لفهم واقع البلاد[2].

وقد أميط اللثام مؤخراً عن وثائق في غاية الريبة قام بها الاستشراق التجسسي داخل البلاد وخارجها، وقد نشرها المحامي "كارلو بورشنكي" في روما عام 1965م، ضمن كتابه "الأوراق والوثائق السرية للدكتور أنريكو إنساباتو" وهو مخبر ومستشرق إيطالي لعب دوراً رهيباً للتمهيد للغزو الإيطالي معتمداً على شعار "الفتح المعنوي بعد الفتح العسكري" لمعرفة واقع الشعب عن طريق معرفة نقاط ضعفه وتشكيكه في بعض قضاياه الدينية والحياتية. فهذا "جورج ريمون" يقول[3]:

"لقد قال لي أولئك الذين كلفوني بهذه الرحلة الشاقة، اذهب لتقصي حقائق وأخبار هذه الحرب المقدسة واختلط بجموع المجاهدين الليبيين، واخترق هذه البلاد الواسعة

(1) نفسه، ص175.
(2) نفسه أيضاً، ص217.
(3) من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا، جورد ريمون، تحقيق عبد الكريم الوافي - طرابلس، دار الفرجاني 1972م، ص23.

التي لم يجسر على عبورها أي أوروبي منذ أربعين سنة، فلعله يحالفك الحظ فتكشف لنا بعض أسرار الإسلام".

أما الاستعمار والاستشراق الفرنسي في شمال إفريقيا من تونس حتى المغرب فقد ركز على ضرورة عدم "ترك القرآن في يد البربر" فقد نشر "المارشال ليوتي Lutty " إلى رؤساء الاستعلامات الذي نقله "الكومندان مارتي Marty " المستشار بوزارة العدلية والصدارة العظمى يقول "لا حاجة لنا في تعليم العربية للمستغنين عنها، والعربية رائدة الإسلام، لأن هذه اللغة تعلم من القرآن، ومصلحتنا تأمرنا أن نمّدن البربر خارج دائرة الإسلام، وأما ما يتعلق باللغة فيجب علينا أن نسير البربرية إلى الفرنسية دون وسائط وهنا أذكر بمنشوري المؤرخ 25 فبراير 1919م ولابد من فتح مدارس فرنسية بربرية تتعلم فيها الشبيبة البربرية الفرنسية"[1].

يقول أوغست بافي Pavy فيلسوف الاستعمار الفرنسي بتونس في الكلمة الترحيبية التي ألقاها أمام المقيم العام في تدشين الصالون التونسي الخامس في عام 1898م.

(هل أكشف لكم عن خفايا خواطرنا وعمق طموحاتنا؟!

إن أملنا هو أن تصبح تونس المركز الحقيقي للفن الشرقي، وأن نجعل شيئاً فشيئاً من هذا الصالون التونسي مكان لقاء ضروري لكل ما يدعو في الفن إلى الاستشراق)[2].

ولا يخفى ارتباط هذه الطموحات بالمشاغل التوطينية التي كانت تكتسي أهمية حيوية بالنسبة لمصالح المجتمع الاستعماري الناشئ[3].

---

(1) جريدة فتح، السنة الخامسة، العدد 223 الموافق 8 جمادي الآخرة 1349، القاهرة، ص7.
(2) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصدر سابق، ص127.
(3) ملامح من حركة الاستشراق الفني، مصدر سابق، ص43.

وكما هو الحال في تونس فإن المنطقة الواقعة غربها، والتي استهدفت لتخطيط فرنسا المباشر (المغرب والجزائر)، كانت هي الأخرى تكتسي أهمية حيوية بالنسبة لفرنسا ومصالحها، ولقد لعب الجنرال ليوتي Lutty لعبة التناقض السياسي التى مارستها فرنسا بين أبناء الشعب الواحد، فصنعت بذلك أزمة مفتعلة بين أبناء الشعب الواحد تسمى (العنصر البربري)، وادعى أن البربر يرحبون بنفوذ فرنسا في المغرب والجزائر، وادعى أن إدماج هؤلاء مفيد لفرنسا وسياستها بشرط أن يتم الإدماج دون احتقار لما ألفوه، كما أن الجنرال "مانجار Mangard " يعد بحثاً دقيقاً لسيكولوجية المغاربة ويؤكد أن تشبثهم بالعادات يفوق تشبثهم بشعائر الإسلام ويقول: (إذا تمكنا من احترام فكرة الدين عندهم فإننا نتمكن من هدم القرآن وتعاليم محمد)[1]. ولقد عثر على تقرير سري وجد في مكاتب الإقامة الفرنسية العامة بالرباط ومكاتب (ك. دورس Dorse) بباريس مدة سبع سنوات كاملة تم نشره سنة 1927م بعد رحيل رجل فرنسا الخطير المشير "ليوتي Lutty"، وبعد تقاعده بسنوات، لقد نشر في رسالة صغيرة طبعها Max de clere تحت عنوان في المغرب مع ليوتي (Au maroc Du Lutty) جاء في التقرير: فأما التعليم فعن طريقه يمكن أن يتم فيه العمل أكثر عمقاً وأشد أثراً في تطور الفكر المغربي الجديد، وإن في هذا الميدان لشغلاً كبيراً يلزم الاعتناء به جداً **لأنه أهمل غاية الإهمال، فبالمدارس وحدها يمكننا أن نهيئ النخبة المتأهلة** للمشاركة معنا ونكون العنصر الحي الأهم في موظفي الحماية"[2].

وهذا التضليل كان يفرض إزاء براءة الطفولة حيث كان يرغم الأطفال المسلمين في المدارس الفرنسية على حفظ نشيد (المارسيليز) ويروي الكاتب الجزائري "مولود فرعون" في روايته الدرب الوعرة "شهادة عن هذه التجربة المرة من خلال رؤية طفل

(1) جريدة فتح، السنة الخامسة، العدد 223، مصدر سابق، ص7.
(2) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصدر سابق، ص143.

مسلم بريء أُقحم وعيه في هذه الخدعة المروعة"[1] "منذ وقت مبكر جداً أوحى إليّ معلمي أن فرنسا أمي الثانية، وأنني اليتيم الذي تُعْنَى به. وقد ملأني ذلك كله بالخضوع والامتنان القلبي، فأحببت فرنسا أكثر من أي طفل فرنسي لها. ولقد شرح لي المعلم مغزى الألوان الثلاثة. وكان ينظر بنفس المستوى من الإعجاب إلى "روبسبير" وإلى "الكورسيكي"(*) قصير القامة الذي دوخ العالم إلا أن مقته كان موجهاً إلى الداي حسين الذي أنقذتنا منشته من البربرية(*).

مما تقدم نستطيع أن نوجز التالي:

1- أن الاستشراق والغزو الثقافي جاءا بعدما خاب الأوروبيون عن طريق السيف.

2- أن الغزو الثقافي وسيلة لإعادة السيطرة على البلاد الإسلامية.

3- أن هدف الغزو الثقافي هو إفساد الخصائص الدينية والقومية وإثارة الفتن والقلاقل لتمزيق وحدة العرب والمسلمين[2].

4- أن المستشرقين هم القوة المتقدمة لتحقيق مطامع المستعمرين.

5- أن المستشرقين مهمتهم سياسية وإن اتخذوا العلم وأحياناً الدين ستاراً لذلك. والأمثلة لذلك كثيرة.

رموز استشراقية:

من أهداف الاستشراق الأولى ضرب الإسلام من الداخل وإحباط كل محاولة إلى الوحدة العربية أو التضامن بين أقطار الإسلام. فبحجة العلم ظهر

(1) الغزو الثقافي سلاح الصهيونية والصليبية الجديدة، مصدر سبق ذكره، ص22 - 23.

(*) المقصود نابليون بونابرت.

(*) إشارة إلى حادثة المنشة التي كانت مقدمة الغزو الفرنسي للجزائر.

(2) الاستشراق السياسي، مصدر سابق، ص258.

من ينادي بإحياء حفريات التاريخ المندثر والبحث عن قوميات سبقت وبادت وانتهى دورها في تاريخ ما قبل الإسلام كالفرعونية، والفينيقية، والآشورية. لهذا الهدف السياسي انبرى نفر من المستشرقين لإحياء اللهجات القديمة بكامل تراثها لترسيخ الدور الذي يريدونه، فكان الاستشراق والغزو الثقافي هو الجسر الذي مرت عليه حركة الاستعمار الحديث للعالم العربي والإسلامي بالذات. فالمستشرقون من رجاله وضباطه ورجال استخباراته كانوا مقتنعين بانتمائهم إلى إمبراطوريات (فرنسا، وبريطانيا.. إلخ)[1].

والاستشراق نوع من الارتباط المصلحي بين أفراد المؤسسات الاستعمارية من جانب وعقيدة دينية ترتبط بالكنيسة من جانب آخر ومن أبرز هؤلاء الذين تستروا بمسوح البحث والعلم والاستشراق:

1- أوغينيو غريفيني 1878 – 1925 Eugenio Grifini:

وقد ألف هذا المستشرق كتاباً في اللهجة الليبية ضمن سلسلة (هويسيلي 1913م) عن اللهجة المستعملة في طرابلس الذي يعتبر حجر الزاوية في التقدم إلى طرابلس الغرب الذي وضعه الإيطالي (أوغستيني E. De. Agostini).

2 – إيتوري روسي (1894 – 1955م) Ettore Rossi:

الذي كان متخصصاً في اللغة التركية وشغل منصب كرسي تركيا في جامعة روما، وزار ليبيا كعسكري ولم يناهز العشرين من عمره وعاد ليشتغل ترجماناً، وانكب على دراسة اللغة والتاريخ والتقاليد الليبية والشعر الشعبي وكتب عن ذلك في صحيفة "طرابلس الغرب" سنتي 1924 - 1925م).

3 – إيستر بانيتا Ester Banita:

(1) نفسه، ونفس الصفحة.

صاحبة كتاب "العربية المستعملة في بنغازي"، ولقد أتقنت هذه المستشرقة اللهجة المحلية والعربية الفصحى ووضعت عدة كتب أبرزها "برقة المجهولة 1952م"، وكتاب "أشعار وأغاني شعبية ليبية 1956م" وقد قدمت وغيرها في سنوات الاحتلال الأصول والترجمات والتحليلات للمعتقدات والأشكال الشعبية التي تعكس الحياة بكاملها في ليبيا[1] حيث أعطت هذه الكتب والبحوث خدمة عظيمة للمستعمر.

4 – ليون كاتياني 1869 – 1926م Caitani Leone:

ولد في روما وتخرج من جامعتها. تعلم سبع لغات منها الفرنسية والعربية، تعتبر كتاباته مرجعاً صحيحاً لكثير من العلماء لما اشتهر به من عمق وسعة ودقة[2] وهي المعلومات التي وظفتها إيطاليا في التبشير.

من أعماله مخطط عربي مجهول المؤلف بعنوان "غرز السير" و"نمو الشخصية الإسلامي" و"انتشار الإسلام". وكان يعد بالاشتراك مع مستشرق آخر هو "جوزيبي جارنوللي Garnolli " معجم الأعلام عن شخصيات العالم الإسلامي.

5 – جولد زيهر المتوفي عام 1929 Gold Zaiher:

يهودي مجري درس الشريعة الإسلامية في الأزهر وتبحّر في اللغة العربية والشريعة الإسلامية موكلاً بمهمة سرية من الحركة الصهيونية ولقد كان من طليعة الذين أقاموا الجامعة العبرية في القدس 1919م تلك الجامعة التي كانت الدعامة الأولى في الغزو الصهيوني الاستيطاني لفلسطين.

6 – لويس ماسينيون 1883 – 1962م Louic Masinioun:

صال وجال على مسرح الشرق الإسلامي. اتخذ من معرفته الواسعة وعمله مادة لخدمة الاستعمار الفرنسي في الشرق العربي والإسلامي منذ

(1) نفسه، ص215.

(2) المستشرقون، ج1، نجيب العفيفي، دار المعارف بمصر، ط3، 1964م، ص372 - 373.

1920م. حيث أُوكلت إليه بعد الحرب الأولى مهمة استعمارية كبرى لترغيب المسلمين في سوريا ولبنان في الاستعمار الفرنسي وفق تدابير الاحتلال[1] وفرض النموذج الغربي الثقافي بعد مسخ الشخصية القومية والدينية.

مما سبق نرى أن الذين قاموا بالاستشراق هم المهندسون والمساحون، وسياسيون يلبسون مسوح الرهبان، ورجال استخبارات في زي علماء لغات وأجناس كانوا يعملون كمستشارين لدولهم. معتمدين على الدعاية المموهة بحجة العلم والدراسة وزرع الحضارة. في حين أنهم وقفوا جهودهم لتقديم الاستشارات الاجتماعية والسياسية، تحقيقاً لأهداف استعمارية محضة بعيدة المدى. واستشراق اليوم وهو يقدم المادة الغزيرة من تراث الشرق بعد أن أشبعها بحثاً وتحليلاً يواجه الحضارة الإسلامية العربية ويصارع العالم الإسلامي عامة، والأمة العربية خاصة لكونه يرسم أو يحاول تحديد مسارها في المستقبل البعيد والقريب. وهو هنا يعتبر مكملاً لما خطط له الاستشراق القديم منذ الصراع الإسلامي الصليبي في الأندلس وصقلية. ولقد أكد "ريتر Ritter " أن الغرب في أشد الحاجة إلى مجهودات علمية أكثر تركيزاً تجاه دول العالم الثالث عامة والشرق الأدنى خاصة وأن الذي لا يختلف عليه اثنان هو: أن نظرة الغرب إلى الشرق الأوسط لا تخلو من نيات وخطط المستشرقين[2].

- إن الدارس المدقق سيكتشف هول الصدمة التي ستواجهه عندما يغرق في بحور الإطراء والمديح الذي يغدقه المستشرقون على ماضي الإسلام وحضارته وبناء أُسسه الأولى. إذ اعتمد بعضهم على منهج البناء والهدم، ومنهج البناء هذا يُغرق القارئ في بحور الإطراء والمديح الذي يكيله بعض المستشرقين للحضارة الإسلامية - أي في جانب من جوانبها - حتى ليشعر القارئ أن المستشرق الذي امتدح ذلك الجانب أو ذاك إنما انطلق عن حب

(1) الغزو الثقافي سلاح الصهيونية والصليبية الجديدة، مصدر سابق، ص19 - 26.
(2) الاستشراق السياسي، مصدر سبق ذكره، ص41.

واقتناع وإيمان ونزاهة وموضوعية. إن هذا ليس إلا مظهراً خادعاً لما يريد الوصول إليه. ذلك أن القضية لا تستمر على مثل هذا النسق من التحليل والإطراء، لأن ما بناه لن يستمر طويلاً، إلا ويتبعه بمنهج آخر هو منهج "الهدم" وهو المنهج الذي يُجرد فيه الباحث موضوعه في أثناء تحليله من كل صفاته، فتختلف المعايير، حيث يهدم ما بناه ويسقطه لبنة لبنة.

وهكذا، ولكي نوضح هذه القضية الخطيرة نورد ما قاله "جوستاف جرونبوم Von Grunebaum " **وهو يتحدث عن قبول العرب للدين الجديد**[1]:

1- إن نظامه الديني من أشد النظم والديانات إحكاماً وأعظمها توافقاً وتماسكاً.

2- كان هذا النظام ينطوي على أجوبة مقنعة للمسائل التي كانت تشغل مواطنيه، كما كان يتجاوب وروح العصر.

3- أنه رفع العالم الناطق بالعربية إلى مستوى العوالم الأخرى ذات الكتب المنزلة.

كل ما سبق يوحي بأن "جرونبوم" ينهج منهجاً موضوعياً إلى حد ما، بحيث يمكننا أن نقول: "إنه يقترب من الحقيقة، لكننا لن نذهب بعيداً، وسنرى بعد ذلك أنه يهدم كل ما بناه للوصول إلى غرضه وأهدافه الأساسية، فها هو يقول[2]:

"كان الهواء يفوح بالزهد، وكان الزهاد يحرمون الخمر، ويستحبون الاعتدال الجنسي، وكما حدث في الإسلام بعد ذلك. فالراجح أن العناصر المسيحية غلبت اليهودية في تكوين وجهات نظرهم وسننهم ولكن العربي الذي كان يبحث عن الصدق لم يكن يعنيه كثيراً ممن يأخذ آراءه الدينية التي

(1) حضارة الإسلام، جوستاف جرونبوم، ترجمة عبد العزيز جاويش، القاهرة، دار مصر للطباعة، سلسلة الألف كتاب، 1956م، ص98.

(2) نفسه، ص99 - 100.

يستولي عليها، ذلك أن حرمانه من كل ميراث قومي أجبره على الأخذ من مختلف العقائد".

وكنموذج آخر لما سبق طرحه يؤكد "هاملتون جب Hamelton Gibb "[1] أن الثورة التي حققها محمد ﷺ هي أنه رفع فكرة الله، ونزهها عن عوالق الطبيعية، ولم يكتف بأن يسميه "الإله الأعلى" بل إنه "الواحد الصمد خالق السموات والأرض وما بينهما وخالق الإنس والجن" ثم يخلص في النهاية إلى أن يحاول تصوير الإسلام كصورة منظورة للمعتقدات الدينية قبل البعثة. إن الأديان العربية القديمة وما فيها من قوى غيبية تمثل القبائل قبيل بدء الدعوة الإسلامية، لم تعد ترضي المشاعر والاعتبارات الدينية لدى الكثير من العرب، والدلالة البينة على ذلك هجر المزارات المحلية وازدياد الحج إلى المزارات المركزية التي تقدسها مجموعة من القبائل والكعبة من أهمها. والحقيقة أن الغرب كان يخطط منذ زمن بعيد ليصيب العرب والمسلمين في الصميم، وليسلب منهم أقوى أسلحتهم وهو الإيمان بالعقيدة والإيمان بالنفس والثقة بها وفي ظل الانتهازية التي رسم خطوطها وخيوطها أدخل في روع الشرق بخططه السياسية والثقافية. إن تقليد الغرب في كل شيء هو أول الخطوات على درب الحضارة[2] والحقيقة أن كل هذه المغالطات لا تهدف سوى إلى تشويه القرآن وغرس الأحقاد تحت ستار العلم، لأن البحوث والدراسات التي تدور حول هذه الموضوعات لا تزال تعتمد أسلوب الخداع تارة ونظرية البناء والهدم تارة أخرى، أو إغراق الشرق بكتب ومجلدات ضخمة تمجد الأدب الجاهلي، وتشير إلى براعة البدو العرب في بلاغتهم وسحرهم وسجاياهم، ثم تتبع هذا الإطراء بما يشبه الانبهار لزرع روح الاعتزاز أو ما سمي بحقنة الاعتزام ليكون هذا توخياً مقصوداً للعرب أو

(1) دراسة في حضارة الإسلام، هاملتن جب، دار العلم للملايين، ط3، بيروت، 1974م، ص248.
(2) الاستشراق السياسي، مصدر سابق، ص44 - 45.

المسلمين ليغرقوا في تأمل الماضي ولينصرفوا عن معضلات الحاضر والمستقبل"[1].

ولقد نجح هذا بعض الشيء مما أحدث صدمة عند قبيل من المثقفين المسلمين أحدثت بدورها شبه شلل في جهاز حضارتهم الثقافية بسبب ذلك، وبسبب تقليد الغرب في كل شيء. عند بعض المثقفين - حتى أدى بهم مُركَّب النقص إلى أن ولوا مدبرين أمام الزحف الثقافي الغربي[2] وقد أوضحت هذه الحقيقة شهادة المستشرق الهنجاري "فمباري Vembari " الذي دهش عند زيارته للقسطنطينية للمرة الثانية حيث عبر عن ذلك بقوله (عند ذلك طفقت أسائل نفسي: أهؤلاء يا ترى هم الترك الذين رأيتهم سنة 1856م، وكيف تمت هذه التطورات الكبرى). وعلى كل حال إذا كان البعض يرى أن البحث ودراسة الاستشراق **وتتبع آثار المستشرقين تهدف إلى:**

1 - اتصال تراثنا بالحضارة الإنسانية اتصالاً وثيقاً منشأ وتأثراً وتأثيراً.

2 - الكشف عن كنوزه في الغرب.

3 - تحقيق المستشرقين لهذه الكنوز وترتيبها ومقارنتها بنظائرها والتصنيف لها.

4 - الرجوع إلى هذه الأعمال عند احتياجنا لها.

فإنه جهد طيب يجب أن لا تهمله "فإن نحن طوينا هذا الجهد تنكرنا للأمانة العلمية في البحث عن الحقيقة الموضوعية مع أن نشره لا يتضمن الموافقة والرضا عندنا جميعاً: فكأننا نأبى أن يكون تراثنا جزءاً لا يتجزأ من الحضارة الإنسانية التي هي ملك لنا كما هي ملك لهم. وإن طَيَّ نشاطهم يبعث على الريبة وسوء الظن والقطيعة. في حين أن الحضارة الإنسانية لا تقوم لها قائمة إلا على التعاون في نشر ذخائر كل أمة في العلوم والفنون والآداب على تنوعها وأوجه الشبه والاختلاف فيما بينها تعاوناً يقهر المسافات النفسية

(1) نفسه، ص59.

(2) إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مالك بن نبي، القاهرة، مكتبة عمارة، 1964، ص12 - 14.

بينهـا بقصـر المخترعـات للمسـافات الجغرافيـة لخلـق تضـامن وجـداني فكـري خَلْقِي في ائتلاف صادق شامل مستمر[1].

- إن جميع ما يرمي إليه الاستشراق هو الهدم والخلخلة للبنيان العربي الإسلامي كما أوضحته الصفحات الأولى من هذا المبحث، إنه التبشير القديم، والتباين ليس في الاسم ولا في الجوهر، بل إنه ليس هناك تباين مطلقاً. لقد قال المستشرق "شاخت Shakt "أن الإسلام تركيب ملفق من المسيحية واليهودية والمجوسية أيضاً، ونبي الإسلام محمد أفَّاق فقير تزوج من خديجة طمعاً في مالها وأنقذه مالها من الفقر"[2].

وعلـى كـل حـال فـإن الإسـلام العربـي الـذي يواجـه مسـتقبلاً وحاضـراً محكومـاً بـأطر خارجيـة وخارجـة عـن إرادتـه لا يفيـده التغنـي بأمجـاد الماضـي، ولا يفيـده أيضـاً الانسـلاخ عـن هـذا الماضـي وإنمـا الـذي يفيـده أن يـرفض أنشـطة الغـربيين وسُـننهم التـي كبلتـه بهـا وأجبرتـه علـى أن يخـوض صِـراعاً مريـراً مـع القـوى الخارجيـة المتناميـة مـن حولـه، وهـو غيـر مـزدوج الشخصـية، وأن يفـرز مضاداته الحيوية من طبيعته هو، لا من مواقف الإثارة واستجاباته لها.

ولهـذا فـإن أكبـر الخطـر أن ننظـر إلـى الاستشـراق بمعـزل عـن سـياقه السياسـي، ذلـك أن هنـاك مغالطـات كبـرى وترويجـاً خطـراً لأفكـار هدامـة أُريـد لهـا أن تتغلغـل وتثبـت فـي عقـول العـرب والمسـلمين عامـة لأن هـذه الأفكـار قـد لبسـت موجـة الموضـوعية والبحـث العلمـي، ونحتـت لـه قـواميس "ميكيافيلليـة" لتبريـر مـا لا يمكـن تبريـره لتلعـب دورهـا الخطـر فـي عقـول المنبهـرين فـي الشرق أو الغرب على حد سواء[3].

وقد لعبت المصطلحات المنحوتة من أجل تضمين الأهداف المرسومة سلفاً.

---

(1) المستشرقون، نجيب العفيفي، مصدر سابق، ص8.
(2) الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصدر سابق، ص56.
(3) نفسه، ص48.

وأصبح حقاً من يصدق أن ادعاء العلم هو التقليد الغربي لكل دخيل، والتسليم في كل موروث، حتى ولو كان هذا الموروث العمود الفقري لحضارتنا العربية الإسلامية وأمسينا نصدق أن نظرتنا الشمولية للإنسانية معناه أن نشتت جهودنا، أو أن نبحث عن قيم مشتركة بيننا وبين الإنسانية (الغرب) التي احتلت أرضنا وسخرت الموضوعات العلمية والقواميس والبحوث المطولة للهجوم على تراثنا وديننا وحضارتنا وليس أدل على رأينا هنا من قول "ذوقان قرقوط" في كتابه عن "أزمة المثقفين العرب" على لسان "ج. بل J. Bell " الموظف في السفارة البريطانية ببغداد منذ سنوات[1]. ومذكرات "دوني وهونمارت Doni & Honamart " الجائلين في الصحراء، وصولاً إلى جوستاف، فوت، جرونبوم Gostaf, Von, Gronbomm " وتاريخ جامعة "كمبردج" للإسلام (إن اختصاصيي الشرق الأوسط الممولين بأمر إرشاد صانعي القرار، منغمسون حتى آذانهم في كتابات المستشرقين لأن هدف الاستشراق في النهاية على رأي "مكسيم رودنسون M. Rodenson "[2] ينحصر في بناء نظرية علمية عن المجتمع العربي الإسلامي هادفة إلى التأثير على هذا المجتمع..؟ أي إضعافه. وذلك بجعل القشور أساسيات، وإبراز التناقض الثانوي وجعله التناقض الرئيس لخلق الفتن والصراعات في بنيان هذا المجتمع لإضعافه والانقضاض عليه بعد أن يكون قد افتقد عوامل الثبات والقوة.

(1) أزمة المثقفين العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، كانون الأول، 1978م، ص83.
(2) مجلة الفكر العربي، مقالة فرانسوا زبال، معهد الإنماء العربي، بيروت، العدد الأول، 1978م، ص74.

مراجع المبحث الأول

أولاً: الكتب :

- أزمة المثقفين العرب، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، كانون الأول، 1982م.
- إنتاج المستشرقين وأثره في الفكر الإسلامي الحديث، مالك بن نبي، ط1، القاهرة، مكتبة عمارة، 1970م.
- الاستشراق السياسي في النصف الأول من القرن العشرين، مصطفى نصر المسلاتي، ط1، طرابلس، 1986م.
- تاريخ العلم، ج2، ساراتون، ترجمة لجنة من الأساتذة، القاهرة، ط1، القاهرة، دار المعارف، 1957م.
- تراث الإسلام، ق1، شاخت وبوزورت، ترجمة محمد زهدي السمهوري، الكويت، عالم المعرفة، 1979م.
- التبشير والاستشراق، محمد إسماعيل الطهطاوي، ط1، القاهرة، مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية، القاهرة، 1977م.
- حكاية مدينة طرابلس، خليفة محمد التليسي، ط1، ليبيا - تونس، الدار العربية للكتاب، 1974م.
- حضارة الإسلام، جوستاف جرونبوم، ترجمة عبد العزيز جاويش، ط1، - سلسلة الألف كتاب -، دار مصر للطباعة، 1956م.
- دراسة في حضارة الإسلام، هاملتون جب، ط3، بيروت، دار العلم للملايين، 1974م.

- دور العرب في تكوين الفكر الأوروبي، عبد الرحمن بدوي، بيروت، دار الآداب، 1965م.
- الصورة العربية والدراسات الغربية، شاخت وبوزورث، ترجمة محمد زهدي السمهوري، ط1، الكويت، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، أغسطس 1978م.
- العرب تاريخ ومستقبل، جاك بيرك، تعريب خيري حماد، ط1، القاهرة، الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر، 1971م.
- الغزو الثقافي سلاح الصهيونية والصليبية الجديدة، محمد صالح يونس، ط1، منشورات رسالة الجهاد 1980م.
- ليبيا قبل الاستعمار، أحمد صدقي الدجاني، ط1، القاهرة، 1971م.
- من داخل معسكرات الجهاد في ليبيا، جورج ريمون، ط1، تحقيق عبد الكريم الوافي، دار الفرجاني 1972م.
- المستشرقون، ج1، نجيب العفيفي، ط3، القاهرة، دار المعارف بمصر، 1964م.
- الموجز في تاريخ العلوم عند العرب، محمد عبد الرحمن مرحبا، ط1، بيروت، دار الكتاب اللبناني، 1978م.

ثانياً المجلات والصحف:

- الحياة الثقافية، ملامح من حركة الاستشراق الفني، علي اللواتي، السنة الرابعة، مايو 1979م.
- دعوة الحق، الإسلام إزاء الفكر الغربي، أنور أحمد الجندي، العدد الأول، السنة الثانية، الرباط، نوفمبر 1964م.
- الدعوة الإسلامية، العدد 187، السنة الثانية، الموافق الحرث (أكتوبر) 1987م.
- الدعوة الإسلامية، العدد 189، السنة الثانية، الموافق الكانون (كانون أول) 1987م.
- الصحف البيروتية، تاريخ 1994/3/25.
- الفكر العربي، مقالة فرانسوا زبال، العدد الأول، بيروت، 1978م.
- فتح، العدد 23، السنة الخامسة، 8 جمادي الآخر، 1994.

المبحث الثاني

الماسونية

حقيقتها وأهدافها

– مدخل